تقديم

مصطفى كامل – باعث الحركة الوطنية

نهج جديد سار عليه المؤرخ الوطني الأستاذ عبد الرحمن الرافعي في كتابه "مصطفى كامل" إذ يؤرخ الرافعي تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ ويربطه بتاريخ زعيم وطني كان له أثره البارز خلال هذه الفترة من حياة مصر، ففي الوقت الذي يسرد الرافعي حياة مصطفى كامل حتى تاريخ وفاته سنة ١٩٠٨ يشرح للقارئ ما مرت مصر فيه من أحداث ووقائع هامة. وأن حب الرافعي في زعيمه وانتماءه إلى مصر من خلال اعتناقه لمبادئ مصطفى كامل ومثله العليا يبرز ذلك في إهداء الكتاب إليه وما احتواه الكتاب من أبواب عديدة.

ولعل كثيرا لا يعرف أن أول ما فكر فيه الرافعي كتابةً لتاريخ مصر القومي فكر في أخراج كتاب عن مصطفى كامل يربطه بتاريخ بلده فهداه تفكيره إلى أن تاريخ مصر القومي يرجع على ما قبل مصطفى كامل بكثير، فعاد يرجع على الوراء حتى هداه الله أن يخرج هذه السلسلة من مؤلفاته في تاريخ مصر القومي الحديث وهي ضمن مؤلفاته العديدة التي أشرنا غليها في نهاية الكتاب.

يقول الرافعي في مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه "وإذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذيول النسيان، فإن هذا ليس شأن العظماء والعباقرة بل أن مرور السنين والأجيال تزيدهم رفعة وخلودا، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان وهم بناة الإنسانية ودعائهما، فكل مرحلة من عمر الزمان وتطور الإنسانية تجدد من ذاكرهم فهم لا يزالون أحياء في كل عصر وفي كل عام".

أشار الرافعي في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب إلى صورة عامة لشخصية مصطفى كامل ثم بين أقسام الكتاب في فصول بلغت أثنين وعشرين فصلا.

وما يهمنا أبرازه في تقديم الكتاب روح الرافعي الوطنية التي تجلت فيها كتب وتعلقه بمبادئ الحرية والديمقراطية والاستقلال التام لوادي النيل شماله وجنوبه.

ولعل الرافعي في كتابه يرسم لكل من يريد الكتابة عن تاريخ شخصية مصرية أو غير مصرية كان لها أثرها البارز في بلدها أن يحلل حياة هذه الشخصية من نشأة صحابها العائلية،

obeikandl.com

والديه وأسرته ويبرز أخلاقيات ووطنية مصطفى كامل، ويشرح حالة العصر الذي ظهر فيه، ومراحل جهاده في المدرستين الثانوية والحقوق، وشعوره بواجبه نحو مصر مدافعا عن حقوق الأمة أمام العالم أجمع في أحاديثه وخطبه في مصر والخارج في الصحف والمجلات والمؤتمرات ومقابلاته السياسية لساسة العالم من محبي الحرية والاستقلال وغيرهم ونداءاته في المناسبات وتمسكه بالوحدة الوطنية بين أبناء الوادي مرددا قوله "أن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد".

أن كثيرين لا يعرفون أن لمصطفى كامل مؤلفات منها كتابه عن المسألة الشرقية وكتابه عن اليابان الشمس المشرقة أخرج هفي يونيو سنة ١٩٠٤ وكتابه "المصريون والانجليز" طبعه بباريس في ديسمبر سنة ١٩٠٥.

إن جهاد مصطفى كامل لم يكن مقصورا على قضية الاحتلال ومطالبته بالجلاء عن وادي النيل، بل امتد نشاطه في سائر النواحي الاجتماعية ومنها نشر التعليم وبناء المدارس والجامعة المصرية والمطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية وقيام دستور يكفل للمصريين حقوقهم وإنشاء الصحف والمجلات، فكان للحزب الوطني جريدة اللواء ومجلة اللواء باللغة العربية والانجليزية والفرنسية.

لقد سطر الرافعي خطوات مصطفى كامل وأعماله في سائر النواحي وربط هذه الخطوات بحالة مصر وتاريخها القومي خلال حياة الزعيم الوطني، الذي بعث في مصر روح الكفاح والوطنية وقضى على حالة اليأس والقنوط التي كانت تخيم على كثير من المواطنين، شرح كل هذه الخطوات بأمانة ودقة شأنه فيما جمعته مؤلفاته الأخرى وبسمات المؤرخ الصادق النزيه بعيدا عن الهوى والغرض، وانتهى الرافعي بعد هذا السرد الأمين إلى الحديث عن القضاء المحتوم لفقيد مصر في ١٠ فبراير ١٩٠٨ وكيف كانت جنازته الشعبية التي خرجت فيها الأمة كلها تشيع فقيدها وسجل الرافعي المراثي من أقوال الشعراء والأدباء منها شعر أمير الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم شاعر النيل وخليل مطران وأحمد محرم وغيرهم.

ولم يكتف الرافعي في كتابه عند هذا الحد بل أوضح كيف خلدت مصر زعيمها في إنشاء ضريح له ضم رفاته في ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وبعد ٤٥ سنة من وفاة مصطفى كامل ثم ضم الضريح رفات محمد فريد في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣ بعد ٣٤ سنة على وفاة فريد وشاءت الأقدار أن يضم جيمان عبد الرحمن الرافعي الذي توفي في ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ في اليوم التالي بجوار زعيمي الحركة الوطنية والجهاد مصطفى كامل ومحمد فريد، ثم بهذا التمثال القائم في ميدان مصطفى كامل بالقاهرة.

أوضح الرافعي في كتابه علاقة الفقيد بالخديوي عباس حلمي الثاني وعلاقته بتركيا ورد على هذه الفرية التي وجهها البعض لمصطفى كامل أنه من أنصار السيادة العثمانية بتحقيق علمي وسياسي سليم انتهى على تمسك مصطفى كامل بمصريته ووطنيته، يتمثل ذلك في قوله "لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا".

إن الكتاب لا غنى عنه لكل قارئ يريد معرفة سيرة الزعماء وحياتهم وكفاحهم وعلاقتهم بكبار الساسة والمسئولين وزملائهم وتلاميذهم. جزى الله الرافعي خير الجزاء على ما قدمه من مؤلفات في الوطنية وتاريخه مصر القومي حديثها وقديمها وفي عصورها الوسطى وهيأ الله سبحانه وتعالى له مقاما حميدا في جنات النعيم.

المستشار

حلمي السباعي شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة السابق

أكتوبر سنة ١٩٨٤

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الرابعة

ظهرت الطبعة الأولى لكتاب "مصطفى كامل " سنة ١٩٣٩. والطبعة الثانية سنة ١٩٤٥. الثالثة سنة ١٩٥٠. واليوم تظهر الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٢.

أسأل الله الهداية والتوفيق

يونيه سنة ١٩٦٢

عبد الرحمن الرافعي

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الخامسة

نحمدك يا رب. إذ الطبعة الخامسة من كتاب "مصطفى كامل" بين يدي القارئ وهي مطابقة تماما للطبعة الرابعة التي ظهرت سنة ١٩٦٢.

والله ولي التوفيق

سنة ١٩٨٤

كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعي

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الأولى لكتاب "مصطفى كامل" سنة ١٩٣٩، والطبعة الثانية سنة ١٩٤٥، واليوم تظهر الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠.

لئن كان "مصطفى كامل" قد انتقلت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى سنة ١٩٠٨، فإن تاريخه لا يقف عند هذه السنة، بل إنه مستمر إلى اليوم وإلى غد وإلى ما شاء الله، وإذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذيول النسيان، فإن هذا ليس شأن العظماء والعباقرة، بل إن مرور السنين والأجيال تزيدهم رفعة وخلودًا، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان، وهم بناة الإنسانية ودعائمها، فكل مرحلة في عمر الزمان وتطور الإنسانية تجدد من ذكراهم، فهم لا يزالون أحياء في كل عصر وفي ل عام. وإذا كان مصطفى كامل قد فارق هذه الدنيا منذ اثنتين وأربعين سنة، فإن دعوة الجلاء التي كانت أساس رسالته الوطنية، والتي دعا إليها من ستين سنة، وناضل من أجلها، وفني في سبيلها، قد استقرت في النفوس، وصارت مع الزمن عقيدة الأمة وموضع الإجماع من المواطنين جميعًا، وصارت علمَ الجهاد وقوامه، في شمال الوادي وجنوبه، وهذا هو الخلود الذي يجعل مصطفى كامل حيًا في نفوسنا، وكأنه لا يزال بيننا.

لم تكن الدعوة إلى الجلاء أمرًا ميسورًا في العصر الذي نشأ فيه مصطفى كامل، فلقد ظهرت دعوته سنة ١٨٩٠ في وقت خيَّم اليأس فيه على نفوس المصريين، فبدت غير معقولة ولا مقبولة، وعدّها الناس وهمًا من الأوهام أو حُلمًا من الأحلام، ولكن مصطفى كامل كان مؤمنًا برسالته، فنهض بها، وشق لها طريقها وسط العقبات والعراقيل، والآن شهدت البلاد منذ وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها سنة ١٩٤٥ استقرارًا لهذه الدعوة وإيمانًا بها في نفوس سكان الوادي، فصارت شعارهم، وصارت عقيدتهم، واحتلت مكان الصدارة في أهداف البلاد الوطنية، فإيمان الأمة برسالة مصطفى كامل هو بعث وإحياء لتاريخه، وهو استمرار لهذا التاريخ.

والطبعة الثالثة من هذا الكتاب تزيد على الطبعة الأولى بما جاء فيها عن إزاحة الستار عن تمثال الفقيد سنة ١٩٤٠، وقد وردت هذه الزيادة في الطبعة الثانية، ثم إقامة الضريح الجديد لمصطفى وفريد، وهي زيادة جديدة، إذ تم في العامل الماضي (١٩٤٩) تشييد الضريح الجديد، وصدر قرار الحكومة بنقل رفات المرحوم محمد فريد على جوار مصطفى كامل، وهكذا يتاح للزعيمين العظيمين، والصديقين الوفيين، أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبرٌ واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفًا وأربعين سنة.

والله أسأل أن يجعل لنا من حقائق التاريخ ما يزيدنا علمًا وبصيرة وإيمانًا.

إبريل سنة ١٩٥٠.

عبد الرحمن الرافعي

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٣٩، وها هي الطبعة الثانية بين أيدي القارئين والقارئات.

ليس تاريخ العظماء مجرد سرد وقائع لحياتهم وأعمالهم بل أهم من ذلك أن تبرز فيه صورة واضحة لمبادئهم التي نشروها، والرسالة التي أدوها، وبذلك يكون تاريخهم مرآة لهذه الرسالة وهاتيك المبادئ.

إن رسالة مصطفى كامل التي تخلد على الزمن هي رسالة الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان، الاستقلال الذي لا يتحقق إلا بجلاء كل قوة أجنبية عن البلاد، فالجلاء في نظر مصطفى كامل هو الرمز الصحيح، للاستقلال الصحيح، هو جوهر الاستقلال ومعناه وهو أساسه ومبناه، ولذلك جاهد الاحتلال الأجنبي طول حياته، أن "كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه"، ذلك هو شعاره، وتلك هي رسالته، لم يقبل فيها هوادة، ولم يتراجع أمام العقبات أو المغريات، وهذا هو السر في نجاحها واستمرارها من بعده، لأنها الرسالة الطبيعية لكل شعب يفهم معنى الاستقلال، ويتمسك به ويناضل من أجله، ولا يرضى عنه بديلاً، وفي ذلك يقول رحمه الله في محاجة خصومة سنة ١٩٠٠: "يمكنني اليوم أن أقول أمام الملأ كله أنه لا يستطيع إنسان أن يدعي أني خالف مبدأ من مبادئي لحظة واحدة مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال، وموت الآمال عند كثير من الرجال، ولا يوجد من يقول إني عملتُ في عز أو ثروة، لأن الطامع فيها لا يقف موقفي ولا يجاهد ضد الاحتلال".

إن رسالة مصطفى كامل يجب أن تبقى، وعلينا أن نحافظ عليها، علينا أن لا نقبل التعاون مع الاحتلال ما بقي الاحتلال في هذه البلاد – مصر والسودان– تحت أي شكل وبأي اسم كان، ولقد بقيت هذه الرسالة ما بقي خلفاؤه يحملونها ويناضلون عنها، وفي ذلك يقول محمد فريد– رمز الإخلاص والتضحية – حين عرض عليه الاشتراك في الوزارة سنة ١٩١٠:" كيف تطلب مني الاشتراك في حكم البلاد وأنا أجاهد الاحتلال وكيف يتفق النقيضان".

ظلت هذه الرسالة قائمة في عهد الاحتلال، وفي عهد الحماية، ثم في ظل معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦، التي رفضها الحزب الوطني، وما كان له أن يقبلها أو يقرها، وهي تناقض راسلته التي حملها في مختلف العهود، وما كان لهذه الرسالة أن تتغير أو تتبدل، سواء بعد

obeikandi.com

إعلان الاستقلال الاسمي في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢، أو بعد إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦، فإن الاحتلال الأجنبي قد بقي قائمًا في ظلهما.

بقيت هذه الرسالة سليمة وبرزت واضحة جلية في سياسة الحزب الوطني وموقفه إلى بضع سنوات مضت، وفي ذلك قال الأستاذ مصطفى الشوربجي بك في خطبته التي ألقاها باسم الحزب الوطني سنة ١٩٢٣ في إحدى الأزمات الوزارية"" تريدون أن تسمعوا كلمة الحزب الوطني في الوزارتين الماضية والحاضرة، إنها كلمة مختصرة، فنحن نرى أن كل وزارة تتألف في عهد الاحتلال لا تستطيع أن تفيد الأمة بقدر فائدتها للسياسة الإنجليزية، بل إن أية وزارة تتألف في هذا الجو لا يمكن لها أن تقدم للبلاد إلا فائدة ظاهرية".

وعندما ائتلف الحزب الوطني مع الأحزاب السياسية لإعادة الحياة الدستورية وعادت سنة ١٩٢٦ بفضل دعوته وجهاده مع الأحزاب المؤتلفة، امتنع عن الاشتراك في الوزارة التي تألفت في أعقاب الانتخابات لقيامها على أوضاع سياسية تخلف مبادئه، وفي ذلك أعلن (اللواء المصري) لسان حال الحزب الوطني وقتئذ "أن الحزب الوطني لم يكن في أي وقت من الأوقات سواء قبل الحرب أو بعد الحرب يرمي على تملك ناصية الحكم، وهو زاهد في هذا الأمر مادام الاحتلال قائما في البلاد، لأنه على يقين بأن حكومة ما لا تستطيع أن تخدم الأمة خدمة صادقة نافعة في حرية واختيار وإلا اصطدمت صدمة تكشف عن ضعف غالبية البلاد وهنا تكون الطامة الكبرى سواء كان الموقف شريفًا بترك الحكم أو ذليلاً بالرضوخ والعدول عن خدمة البلاد إلا وفق مرامي الغاصب"، وأيد الأستاذ حافظ رمضان باشا هذا المعنى في حديثه بجريدة الأنفور ما سيون إذ سأله محدثه" "هل يمكنكم أن تحدثوني عن موقف الحزب الوطني إزاء تطور الأزمة الحاضرة وهل تقبلون الدخول في وزارة؟" فأجابه على الفور" "يمكنني أن أصرح لك في غير مواربة أن الحزب الوطني الذي أتشرف برئاسته بعد كبار الرجال الذين ذاع صيتهم ليس له مطمع وزاري في النظام الحاضر، إن برنامجنا واضح جدا، وهو يفرض علينا خطة صريحة جلية. ولكن في انتظار حوادث جديدة تنشئ لنا أمرًا جديدًا، قد رأينا أن لا نضع أية عقبة في سبيل وزارة تعمل على إعادة الحياة الدستورية وتبذلك الجهد في إدارة أعمال البلاد في طريقة الرقِّي، فالحزب الوطني هو وطني قبل أن يكون سياسيًا".

ولم يتبدل أساس الوضع السياسي القائم في البلاد بعد إبرام معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦. بل إن هذه المعاهدة قد أقرت ما أقرت من أوضاع نهض الحزب الوطني لمقاومتها على تعاقب السنين، وأخصها الاحتلال الأجنبي وفصم عري الوحدة بين مصر والسودان.

وما كان للحزب الوطني وقد ارتبط ماضيه ووجوده بمقاومة هذه الأوضاع التي تناقض الاستقلال الصحيح أن ينفصل عن ماضيه لمجرد إبرام معاهدة رفضها وأنكرها استمساكا بمبادئه؛

ولكن فريقًا من أعضائه قد سلكوا منذ بضع سنوات طريقًا يتعارض مع هذا الماضي المجيد، فوافقوا على اشتراك الحزب في الوزارة في ظل هذه المعاهدة وعلى أساس تنفيذها " بروح الود والإخلاص"، وبذلك أقروا التعاون الودي مع الاحتلال الأجنبي، ولم يكن التعاون مع الاحتلال مبدأ و لا شعارًا لحزب الجلاء، وليس هو التراث الوطني الذي خلفه لنا مصطفى كامل ومحمد فريد.

ولعل في كتاب (مصطفى كامل) ما يبصرنا برسالة (مصطفى كامل) ويحييها في نفوسنا، ويجلوها على وجهها الصحيح، فنعرف منها كيف يكون الجهاد الخالص لله والوطن.

والله اسأل أن يهدينا سواء السبيل.

يناير سنة ١٩٤٥

عبد الرحمن الرافعي

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

هذا هو الكتاب الذي اعتزمتُ وضعه عن "مصطفى كامل" منذ سنوات عدة، وقد تأخرتُ في إخراجه عن الموعد الذي كنت قدرته، لأنني إذ بدأت في كتابة فصوله الأولى استوقفني البحث في مبدأ ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديثة، فبدا لي أن أرجع إلى الأدوار التي سبقت عهد مصطفى كامل، لكي أقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية، فانتهى بي البحث إلى اعتبار المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر أول دور من أدوارها ومن ثم اتجهت نيتي إلى دراسة تلك الأدوار على التعاقب، قبل الكتابة عن مصطفى كامل، فانتظرت حتى أتممت المجلدات السبعة التي وضعتها في تاريخ الحركة القومية وأدوارها، من عهد ظهورها في إبان الجملة الفرنسية، وتطورها بعد انتهاء تلك الحملة، إلى اكتمالها في عصر محمد علي، ثم تجددها في عهد سعيد وإسماعيل، إلى الثورة العرابية، ثم الانحلال الوطني العام في السنوات الأولى الاحتلال.

واليوم أكتب من "مصطفى كامل" باعث الحركة الوطنية الحديثة، وغرضي من دراسة تاريخه أن أطالع الجيل بصفحة من الجهاد القومي، تصل حاضرنا بماضينا، وتنير لنا السبيل في جهادنا الحالي، وجهادنا في المستقبل، أريد بدراسة هذه الصفحة من تاريخنا القومي أن أدون وقائعها، وأسجل حقائقها، لأن حوادث التاريخ وأعمال الرجال إذا انقضت عليها السنون ولم يسجلها القلم، يخشى أن يجر عليها الزمان ذيول الإهمال والنسيان.

* * *

من أراد أن يعرف فضل مصطفى كامل على الحركة الوطنية ويستخلص من تاريخه صورة عامة لشخصيته، فليرجع إلى العصر الذي ظهر فيه، فلقد ظهر سنة ١٨٩٠ على حين فترة من الحركة الوطنية، وهجعة من الكفاح القومي، وانحلال في الروح المعنوية، ظهر والنفوس قد استحوذ عليها اليأس والقنوط، على أثر إخفاق الثورة العرابية واحتلال إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢، ظهر حين خيم على البلاد جو من الخضوع والاستسلام، بقى مضروبا عليها نحو عشر سنوات، فنهض يدعو إلى الحرية والاستقلال، في وقت تحالفت فيه عوامل اليأس، وتضافرت

أسباب الجمود والضعف، دعا دعوته، لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذاً وأوسعها سلطانا؟ ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذي ظهر فيه. وأقوى من العوامل المثبطة، فأخذ يثابر على دعوته، ويناضل عنها، حتى استجابت الأمة لندائه، فكانت نهضة، وكانت حياة، وكان شعور، وكان جهاد، كانت رسالته على مصر كصرخة الحياة المدوية في سكون النوم العميق، كانت رسالة الأمل بعد اليأس، والحياة بعد الخمود، والكرامة بعد الهوان، والجهاد للحرية والاستقلال، بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد، وإذا كانت الدعوة الوطنية التي دعا إلهيا وناضل من أجلها قد صارت بعد ثمانية عشر عامًا من جهاده طبيعية محببة إلى النفوس، فإن الطريق إليها كان شائكا، ولقد كانت في حاجة على إقدامه، وعبقريته وإيمانه، فهي كحادث اكتشاف القارة الأمريكية، ظهر طبيعيًا ومعقولاً بعد تمم الاكتشاف، ولكنه كان في حاجة إلى إقدام "كريستوف كولومب" وعبقريته.

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤، وظهرت وطنيته أول ما ظهرت سنة ١٨٩٠ حين كان لا يزال طالبًا بالمدرسة الثانوية، إذ شعر بهاتف الوطنية يهتف بين جنبيه، يناديه بأن عليه واجبًا نحو مصر يجب أن يؤديه، ويدعوه إلى الجهاد لتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي، وعرف فيه على باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ أنه الشاب الذي سيكون له شأن كبير، فقال له "إنك امرؤ القيس"، وبشره بأن سيكون عظيما، وقد تحققت نبوءته، فصار الفقيد عظيما بوطنيته وجهاده، ثم دخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٩١، واختارها "لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد" كما قال في كتاب له على شقيقه على فهمي كامل (بك) في ١٢ يوليه سنة ١٨٩١، دخلها لكي يعد نفسه لأداء مهمته الوطنية. وقد راسل الصحف وهو بعد طالب، وأنشأ مجلة (المدرسة) سنة ١٨٩٣ وهو طالب، واتخذ شعارها (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) فالوطنية كانت عقيدته وشعاره وهو في تلك السن المبكرة، نشأت فيه دون أن يتلقاها عن معلم، أو يقتبسها من العصر الذي ظهر فيه، لم تكن نتيجة درس أو تعليم، بل كانت وحي الإلهام والعبقرية، ثم نال شهادة الحقوق سنة ١٨٩٤، فلم يتبع ما درج عليه معاصروه من اختيار منصب في الحكومة، أو الانتظام في سلك المحاماة، بل وقف حياته على ما عاهد عليه الوطن من المحاماة عن الأمة، والعمل لاستقلالها وحريتها وكرامتها، وقد صدق وعده، إذ كانت سنو حياته وقفًا للجهاد، فكان لا يفتأ يعمل، ويكتب، ويخطب، ويؤلف، ويجوب البلاد متنقلا، رافعًا صوت مصر في الداخل والخارج، ينادي بحريتها واستقلالها، مستحثًا مواطنيه على الالتفاف حول راية الجهاد والأمل حتى تفتحت الأذهان على توالي السنين إلى قبول دعوته، ثم جاءت سنة ١٨٩٨، ووقعت فيها حادثة فاشودة، فصُدمت الحركة الوطنية صدمة لزلزلت الأمل الذي أحياه مصطفى في النفوس، بدأت تلك الحادثة بتنازع فرنسا وانجلترا على المسألة المصرية، وكان الظن أنها تنتهي

بجلاء الإنجليز عن مصر، ولكنها انتهت على العكس بتراجع فرنسا، ورسوخ أقدام الاحتلال في وادي النيل، وأعقبها إبرام اتفاق السودان بين مصر وإنجلترا في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، ذلك الاتفاق الذي قضى على مركز مصر في السودان، فيئس المصريون، وانصرفت نفوسهم وقتًا ما عن الاستماع على النداء الوطني، ولكن مصطفى كامل لم ييأس ولم يتراجع، بل استمر ماضيًا في جهاده، وعول من ذلك الحين على عدم الاعتماد على فرنسا، وفقد أمله في عدالة أوروبا عامة، منذ رأي جمودها أمام مأساة (البوير) سنة ١٩٠٠ وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الإنجليزية، دون أن تأبه لهم، فدعا الأمة إلى الاعتماد على النفس، ومتابعة الجهاد، وكان هو المثل الأعلى في الثبات والمثابرة، والشجاعة والإقدام، وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠، فكان مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم، وثبت فيهم روح الوطنية الصادقة، والأخلاق الفاضلة، واستمر يناضل عن مصر على صفحات اللواء وفوق أعواد المنابر، وفي صحب أوروبا وأمريكا، إلى أن جاءت سنة ١٩٠٤، فصُدمت الحركة الوطنية صدمة جديدة، إذ ابرم العهد المعروف"بالاتفاق الودي" بين فرنسا وانجلترا، وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الانجليزي في مصر، وتعهدت بألا تعرقل عمل انجلترا فيها، فكان لهذا الاتفاق أسوأ الأثر في نفوس كبراء مصر وعظمائها، ورجالها المعدودين، ورأي أكثرهم أن الخير لهم في مسالمة الاحتلال، والانضواء تحت لوائه، واكتساب رضاه، ولكن مصطفى كامل خالفهم واستمر في طريقه يحمل علم الجهاد، لا يني ولا ينثني، مناديا بالجلاء، وتجلت وطنيته في روعتها حين عظمت هموم الوطن، وقلّ المعين والناصر، فقد ضاعف جهوده، وصمد للعقبات والعراقيل، يتغلب عليها بقوة العزيمة والإيمان، وبتأثير دعوته ووطنيته ومثله الأعلى نشأ جيل من المصريين أشربت نفوسهم الوطنية الحقة، وحب الحرية والاستقلال، ودرجوا على الأمل والحياة، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة، وأهمها تأسيس نادي المدارس العليا سنة ١٩٠٦، إذا اجتمعت فيه صفوة الشبيبة المصرية المثقفة، وتشبعت بتعاليم الفقيد ومبادئه، متعاهدة على الإخلاص في خدمة الوطن، وبذلك سرت روحه إلى الطبقة المثقفة من الأمة، ثم كانت حادثة دنشواي في يونيه سنة ١٩٠٦، فحمل فيها الفقيد على الاحتلال وسياسته الحملات الصادقة، وجاءت محققة لصدق نظره في أن لا حياة للأمة ولا كرامة لها بغير الاستقلال، ومن انتشرت تعاليمه ومبادئه حتى سرت إلى طبقات الشعب كافة وضعاف الفقيد جهاده، وظل يخطب ويكتب ويعمل في أوروبا وفي مصر داعيًا إلى الاستقلال، وأنشأ سنة ١٩٠٧ جريدتين يوميتين، إحداهما بالفرنسية (ليتندار اجبسيان) وأخرى بالإنجليزية (ذي اجبشيان استاندارد)، تدافعان عن حقوق مصر في العالم الأوروبي، إلى جانب (اللواء) في العالم الشرقي، وهكذا كان الفقيد يصدر ثلاث صحف يومية كبرى، بثلاث لغات مختلفة للدفاع عن مصر، وهي مهمة تنوء بها العصبة أولو القوة من الرجال والجماعات، وقد تأثرت صحته من هذه الجهود المضنية المتواصلة، وعشر بدبيب المرض في سنة ١٩٠٦، حيث كان بباريس

صحبة صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد، لاختيار محرري جريدتي ليتندار اجبسيان وذي اجبشيان استاندارد، وهناك عاده طبيب عالمي مشهور، وبعد أن فحص عن مرضه نحصه بحضور فريد بك أن يترفق بصحته ولا يحملها فوق طاقتها، ولكنه لم يسمع لنصح الناصحين، وسارع الخطي في تنفيذ مهمته، لكي يتمم رسالته قبل أن يدركه الجل، فكانت سنوات ١٩٠٦، ١٩٠٧ وأوائل سنة ١٩٠٨ حافلة بعظائم الأعمال، ومازال يجاهد ويناضل حتى ذوت زهرة شبابه في ١٠٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره.

* * *

إن الثماني عشرة سنة التي قضاها الفقيد في الجهاد هي أساس الحركة الوطنية الحديثة، فهو باعثها ومحييها، وبانيها وسط الشدائد والعقبات، ومدعمها بالإيمان والشجاعة الثبات، ومغذيها بالإخلاص والتضحية، مات في ميدان الجهاد كقائد الجيش في ساحة الوغى، يرى الخطر محدقا به، فلا يكترث له، ويتقدم الصفوف حتى يستشهد في سبيل الواجب، أو كما قال فريد بك "مات رئيسنا في ساحة الوغى كالقائد يعاني سكرات الموت ويده تشير إلى جنده بالتقدم إلى الأمام".

فالروح التي بعثها مصطفى كامل في الأمة هي التي صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية، وهي التي مهدت السبيل لثورة ١٩١٩ التي اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحركة الوطنية، وهم في ذلك مخطئون، لأن الثورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين، بل هي حوادث اجتماعية، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعًا لدرجة استعدادها، ونتيجة لسريان روح الوطنية في نفوس أبنائها، فلولا الوطنية التي بثها مصطفى كامل في نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاما التي قضاها في الكفاح، لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين، دون أن تتجلى فيها روح الثورة، فالثورة هي غرس الوطنية، والوطنية هي نتيجة جهاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين، ولهذه الصفحة من الجهاد قد خصصت هذا الكتاب، فاليوم أؤرخ "مصطفى كامل" وغدًا بمشيئة الله سأؤرخ "محمد فريد" وبذلك أكون قد أديت واجب نحو عباقرة الوطنية الذين رسموا للأمة طريق الجهاد الخاص لله والوطن.

أقسام الكتاب

أفردت الفصل الأول من الكتاب لدراسة نشأة الفقيد والعصر الذي ظهر فيه، وتناولت الكلام عن نشأته العائلية والمدرسية، ثم الأخلاقية والوطنية، يليه الفصل الثاني وفيه بيان المرحلة الأولى من جهاده في عهد التلمذة، والفصل الثالث عن المرحلة الثانية، بعد حصوله على شهادة الحقوق، ثم الفصول الثلاثة التالية عن جهاده من سنة ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٧، والفصل السابع عن حادثة فاشودة وجهاده سنة ١٨٩٨. والذي يليه الاتفاق الودي الإنجليزي الفرنسي سنة ١٩٠٤، وأثره في الحركة الوطنية، وموقف الفقيد منه، ومضاعفة جهوده بإزائه، ثم تأسيس نادي المدارس العليا، ثم حادثة دنشواي واستقالة اللورد كرومر، فظهور جريدتي ليتندار اجبسيان وذي اجبشيان استاندرد، يلي ذلك تأسيس الحزب الوطني، وخطبة الفقيد الكبرى بالإسكندرية، يليه الفصل الخامس عشر عن وفاة الزعيم وجنازته، ومراثي الشعراء والكتاب فيه، ثم الفصل السادس عشر عن الخديو عباس الثاني وتاريخ مصر السياسي في عهده، يلي ذلك فصول تحليلية عن مصطفى كامل والخديو، ومصطفى كامل وتركيا، ثم مجلس شورى القوانين، ثم مصطفى كامل ومعاصريه، يليه الفصل الحادي والعشرون وفيه دراسة لشخصية الزعيم وصفاته وأخلاقه ومقدرته السياسية والخطابية والصحفية، وتضحياته في الجهاد، وفضله في بعث الحركة القومية وتأسيس الوحدة الوطنية، ثم الفصل الأخير (الثاني والعشرون) وفيه نماذج من حياته الخطابية، وبه ختام الكتاب.

* * *

إن الحديث عن مصطفى كامل يتحدد كلما تعاقبت الحوادث وكرت الأعوام، إذ من الحق علينا للزعماء الراحلين أن نذكر على الدوام فضلهم ولا ننساهم، فالوفاء ركن من أركان الوطنية، بل هو ركن الفضائل وقوامها، والأمم الحية هي التي تعرف أقدار بنيها الذين افنوا حياتهم في سبيل مجدها وعظمتها، وإني بإخراج هذا الكتاب لا أنشد الوفاء فحسب، بل أقصد المساهمة العملية في النهضة القومية، لأنه مهما تعددت نواحي النهضة وسبلها، فمن الواجب لكي تؤتى ثمرها أن ترتكز على أساس ثابت من الروح الوطنية العامة التي تضع مصالح الوطن فوق المطامع الشخصية والمنافع الذاتية، وليس أدعى على بث هذه الروح في النفوس من الرجوع إلى تاريخ الزعماء والمجاهدين الذين كانت حياتهم رمزًا للإخلاص والتضحية، فمن ذكرياتهم نستروح

obeikandi.com

نسيم الوطني الصادقة، وستبقى سيَرهُم على مر الزمان يُقتدى به في العمل لإحياء الوطن، هذا ما أنشد وإليه أقصد، "إن أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

يناير سنة ١٩٣٩ **عبد الرحمن الرافعي**

obeikandl.com